د. محمد عز الدين الغرياني

المذهب المالكي

النشأة والموطن وأثره في الاستقرار الاجتماعي



WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique

د. محمد عز الدين الغرياني

المذهب المالكي

النشأة والموطن
وأثره في الاستقرار الاجتماعي

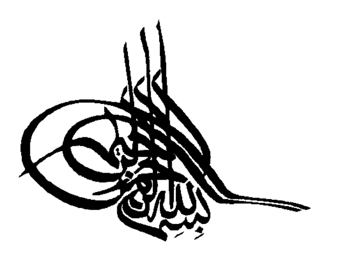


المذهب المالكي
النشأة والموطن وأثره في الاستقرار الاجتماعي
تأليف: د. محمد عز الدين الغرياني



منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
طريق السواني ـ طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
هاتف: 65 ـ 4808461 ـ بريد مصور: 4800293 ـ ص. ب: 2682 طرابلس
Website: www.islamic-call.net
E-mail: media@islamic-call.net

سنة الطبع: 1378 من وفاة الرسول ﷺ ـ (2010) مسيحي
الرقم المحلي: 217 / 2009 دار الكتب الوطنية ـ بنغازي
الرقم الدولي: ردمك: 2 - 242 - 28 - 9959 - 978 :ISBN



مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه، وبعد:

فقد انتشر المذهب المالكي منذ بدايات وجوده في بلاد المغرب العربي عامة، وفى بلاد ليبيا خاصة، واستقر ونما في ثناياها، ومعاهدها العلمية المتعددة، وزواياها الفقهية المختلفة، وكان لهذا الانتشار والاستقرار الأثر الكبير في بث الثقافة الإسلامية النيرة، والوعي الديني العميق، ويتساءل اليوم كثير من الناس عن الأسباب التي أدت إلى هذا الانتشار وذاك الاستقرار، وعن الأسباب التي دفعت الناس إلى التشبث بالمذهب المالكي، والتمسك به، بحيث صار جزءاً من كيانهم الفكري،

وبنيانهم الثقافي، وهذا البحث يحاول الإجابة عن هذه التساؤلات، ويبين دور المذهب المالكي في الاستقرار الاجتماعي والإستقلال الوطني، ومساهمته في مقاومة الاستعمار ودحر الإحتلال.

فإن وفقت فمن الله، وما توفيقي إلا به عليه توكلت وإليه أنيب

د. محمد عز الدين الغرياني

تمهيـــد

التعريف بالإمام مالك
«نبـذة مختصـرة»

1 ـ إسمه :

مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني[1].

2 ـ مولده :

اختلف المؤرخون في السنة التي ولد فيها الإمام مالك، والأصح أنه ولد سنة ثلاث وتسعين هجرية[2].

3 ـ مكان الميلاد والنشأة :

ولد الإمام مالك في المدينة المنورة، التي كانت

---

(1) انظر سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق سيد حسين العفاني، خيري سعيد، ح7 ص 361، المكتبة التوقفية، تهذيب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ح8 ص6 دار الفكر.

(2) السير ـ مرجع سابق ـ ح7 ص361.

موطن الشرع، ومبعث النور، ومركز العلم، ومقر الخلافة الإسلامية، في بيت عرف باشتغاله بعلم الحديث، وتتبع الآثار، فجده مالك كان من كبار التابعين وعلمائهم، وثقاتهم، روى عن عمر، وعثمان، وطلحة، وعائشة وأبي هريرة... وكان ممن يكتب المصاحف حين جمع عثمان ـ رضي الله عنه ـ المصاحف، وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ يستشيره وأعمامه نافع، وأويس، والربيع ـ من الرواة الذين رووا عن أبيهم مالك وعن غيره، ونافع ممن روى عن ابن عمر، وسهل بن سعد، وأنس.... وعنه روى مالك وغيره.

وأخوه النضر من العلماء، وكان مالك يعرف به في أول الأمر، فكان يقال: أخو النضر[1].

4 ـ شيوخه:

درس الإمام مالك على مشائخ كثيرين، كان بعضهم

---

(1) تهذيب التهذيب ـ مرجع سابق ـ ح8 ص 19، 471 الديباج المذهب، ابن فرحون، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ح1 ص 85 ـ 86 دار التراث، مالك حياته وعصره ارآؤه وفقهه، محمد أبو زهرة، ص22 ـ 23 دار الفكر.

من أبناء الصحابة أو تلامذتهم، وكان البعض الآخر من تابعي التابعين.

ومن أشهر مشائخه: نافع مولى ابن عمر، وابن شهاب الزهري، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وهشام بن عروة، وسعيد بن المسيب، وعامر بن عبد الله بن الزبير، وزيد بن أسلم، وجعفر الصادق، وعبد الرحمن القاسم، وابن هرمز، وأيوب السختياني[1].

5 ـ تلاميذه:

أخد عن الإمام مالك خلائق كثيرة لا تحصى، من أهل المشرق، ومن أهل المغرب، فإنه الإمام الذي شدت إليه أكباد الإبل من القارات الثلاث: آسيا، وأفريقيا، وأوروبا، ومن أشهر تلاميذه: الإمام الشافعي، ومحمد ابن الحسن الشيباني، وعبد الله بن المبارك، وابن القاسم، وأشهب، ويحي بن يحي، وأسد بن الفرات، وابن وهب، وابن نافع[2]. . . .

(1) الديباج ـ مرجع سابق ـ ح1 ص 137 ـ 139 تهذيب التهذيب ـ مرجع سابق ـ ح8ص6 ـ 7.

(2) انظر الديباج 1 ص139، السير، مرجع سابق، 7 ص363 ـ 365.

6 ـ كتبه :

ترك الإمام مالك آثاراً متعددة، تعبر بوضوح عما يتمتع به الإمام من سعة العلم، وقوة المدرك الاجتهادي.

والآثار التي تركها بعضها كتبه بنفسه مباشرة، وبعضها رواه عنه تلامذته.

ومن أهم مؤلفاته :

أ ـ الموطأ :

يعد الموطأ من أول كتب المدونة في الحديث والفقه الإسلامي، فقد كان الناس قبله يعتمدون على الذاكرة أكثر مما يعتمدون على الكتاب، وإن كان ثمة شيء فهو تلك المجموعة الخاصة، أما التدوين والتأليف الحق فقد ابتدأ بالموطأ، هكذا يقول الثقات، وهكذا يقول أهل الخبرة في الحديث والفقه(1).

وقد سلك الإمام مالك في تصنيفه له منهجا جمع فيه بين :

---

(1) مالك حياته وعصره ـ مرجع سابق ـ ص175 ـ 176.

- رواياته من أحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - وفتاوى الصحابة والتابعين.

- اجتهاداته واستنباطاته.

وقد رتب كل هذا على أبواب الفقه، فهو كتاب حديث وفقه معا، وسيأتي مزيد بيان لقيمة هذا الكتاب حين التحدث عن أسباب انتشار المذهب المالكي.

ب - المدونة:

تعتبر المدونة أهم أمهات المذهب المالكي، وأصح كتب الفروع فيه. وهي تشمل آراء الإمام مالك الفقهية وتخريج ابن القاسم على أصول الإمام مالك الفقهية.

وللإمام مالك مؤلفات أخرى متعددة، منها رسالة في القدر، ورسالة في الأقضية عشرة أجزاء، وكتاب في النجوم، وكتاب في التفسير بغريب القرآن[1]. وله إملاءات كثيرة، قال الإمام القرافي: أملي إمام دار الهجرة في مذهبه نحوا من مائة وخمسين مجلداً في الأحكام الشرعية، فلا يكاد يقع فرع إلا ويوجد له فيه فتيا[2].

---

(1) الديباج، 1 ص124 ـ 125.

(2) الذخيرة، أحمد بن ادريس القرافي، تحقيق محمد حجي، 1 ص34، دار الغرب الاسلامي.

7 ـ أصول مذهبه:

تعتبر أصول المذهب المالكي أقوى الأصول صحة، وأكثرها عددا، قال ابن تيمية: من تدبر أصول الإسلام وقواعد الشريعة، وجد أصول مالك وأهل المدينة أصح الأصول والقواعد[1].

وقال أبو زهرة: إننا لنقرر غير مجازفين أنه مذهب الحياة والإحياء، قد اختبره العلماء في عصور مختلفة، فاتسع لمشاكلهم، واختبره علماء القانون في عصرنا الحاضر، فكان مسعفا لهم في كل ما يحتاجون إليه من علاج. وإن نوع الأصول التي يزيد بها المذهب المالكي على غيره، ومسلكه في الأصول التي اتفق فيها مع غيره، يجعلانه أكثر مرونة، وأقرب حيوية، وأدنى إلى مصالح الناس[2].

وأصول المذهب المالكي إجمالا هي: القرآن، والسنة، والإجماع، والقياس، وقول الصحابي،

---

(1) مجمع الفتاوي، ابن تيمية، ح20 ص328، دار عالم الكتب الطبعة 1412هـ ـ 1991م.

(2) مالك حياته وعصره، ـ مرجع سابق ـ ص376.

والمصلحة المرسلة[1]، والعرف، وسد الذرائع[2]، والاستصحاب[3]، والاستحسان[4] [5].

(1) أي المطلقة من الاعتبار والالغاء، أي التي لم يرد عن الشارع أمر بجلبها، ولا نهي عنها، كتاب إيصال السالك في أصول الامام مالك، محمد يحي بن عمر، ص28، المطبعة التونسية.

(2) أي سد أبواب الوسائل إلى الفساد، المرجع السابق، ص22.

(3) أي بقاء ما ثبت في الزمن الماضي، ما لم يوجد ما يغيره، الوسيط في أصول الفقه الاسلامي، عمر مولود عبد الحميد، ص181، الجامعة المفتوحة طرابلس.

(4) أن يعدل المجتمع عن أن يحكم المسألة بمثل ما يحكم به في نظائرها لوجه أقوى يقتضي العدول عن الأول، المرجع السابق ص174.

(5) مالك ـ مرجع سابق ـ ص218.

المبحث الأول

أسباب انتشار المذهب المالكي

المطلب الأول: **الآفاق التي انتشر فيها المذهب.**

المطلب الثاني: **أسباب الانتشار.**

المطلب الأول

الآفاق التي انتشر فيها المذهب

تعتبر المدينة المنورة هي نقطة الانطلاق والبداية للمذهب المالكي، وقاعدة التأسيس له، باعتبارها البيئة والمكان الذي نشأ فيه المذهب، وانتظم، وتكّون، ومنها انتشر في مناطق متعددة من بلاد الحجاز.

وكانت مصر أول بلد بعد الحجاز انتشر فيها المذهب المالكي، وكثر فيها تلاميذه.

وقد ظهر المذهب في مصر في حياة الإمام مالك، أدخله فيها تلاميذه النبغاء، أمثال: عثمان بن الحكم الجذامي، وابن القاسم، وأشهب، وابن عبد الحكم، وثوبان بن إبراهيم المصري، وغيرهم.

وقد اختلف العلماء في أول من أدخل المذهب المالكي

إلى مصر، فيرى ابن شعبان وابن فرحون: أن أول من أدخله هو عثمان بن الحكم الجذامي[1]، ويرى أبو يعلى القزويني: أن أول من أدخله عبد الرحمن بن القاسم[2]، ونقل ابن حجر عن ابن وهب: أن أول من قدم مصر بمسائل مالك: عثمان بن الحكم، وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد[3] شيخ ابن القاسم الأول.

وكان المذهب المالكي الأكثر انتشار قبل قدوم الإمام الشافعي إليها، فلما قدم تعادلا المذهب المالكي مع المذهب الشافعي في نسبة الانتشار، ولا يزالان كذلك بالنسبة للعبادات حتى الزمن الحاضر[4]. واختص المذهب الحنفي فيها بالتطبيق في جانب القضاء، حتى جاءت التعديلات الأخيرة[5] في جانب الوقف، والوصايا، والميراث، والأحوال الشخصية، فبرز

---

(1) الديباج 1 ص187، ترتيب المدارك وتقريب المالك لمعرفة مذهب مالك، القاضي عياض، تحقيق أحمد بكير، 1، 309، مكتبة الحياة بيروت.

(2) الارشاد، ص29 مخطوط الخزانة العامة بالرباط، نقلا عن كتاب محاضرات في تاريخ المذهب المالكي، عمر الجيدى، ص19، منشورات عكاظ المملكة المغربية (د ـ ت).

(3) المرجع السابق، نفس المكان.

(4) تاريخ المذاهب الإسلامية ـ أبو زهرة ـ ص422 دار الفكر العربي.

(5) سيأتي بيان زمنها.

المذهب المالكي، وكان ما اقتبس منه العنصر الجوهري في الاصلاح في القانون رقم (25) لسنة 1930م، وقانون المواريث، والوقف، والوصايا[1].

دخول العراق وخراسان :

دخل المذهب المالكي العراق مع أبى عبد الرحمن عبد الله بن مسملة القعنبي، الذي لازم مالكا عشرين سنة، وأبى سعيد عبد الرحمن بن مهدي، وأبى حذافة السهمى، وأبى أيوب سليمان بن بلال، وأبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك، وابن السائب، وغيرهم.

وانتشر المذهب في العراق عن طريق القاضي إسماعيل، والأبهرى.

أما خراسان وما وراءها فقد دخلها المذهب عن طريق تلامذة الإمام، وعلى رأسهم عبد الله بن المبارك، وقتيبة بن سعيد، ويحي بن بكير التميمى.

وانتشر بقزوين، وأبهر، وما والاها من بلاد الجبل،

---

(1) مالك حياته وعصره، مرجع سابق ص 383.

وآخر من درّس المذهب المالكي بنيسابور أبو إسحاق بن القطان[1].

دخول الشام :

كان دخول المذهب المالكي للشام عن طريق أبى العباس الوليد بن مسلم بن السائب، وأبي مسهر عبد الأعلى بن مسهر الغساني[2].

دخول اليمن:

كان الفضل في الترويج للمذهب المالكي في اليمن لأبى قرة القاضي، ومحمد بن حميد، وأمثالهما[3].

دخول تونس والمغرب:

يرجع الشرف في التأسيس للمذهب المالكي في تونس والمغرب لابن زياد وغيره، قال القاضي عياض: وأما إفريقيا وما وراءها من المغرب، فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين، إلى أن دخل علي بن زياد، وابن أشرس، والبهلول

---

(1) ترتيب المدارك 1، 399 و 3، 169، 170. الديباج 1، 463.
(2) ترتيب المدارك 2، 415 ـ 417. الديباج 2، 53.
(3) ترتيب المدارك 1، 396، 397.

بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات، وغيرهم، بمذهب مالك، وأخذ به كثير من الناس، ولم يزل يفشو إلى أن جاء سحنون، فغلب في أيامه، ورفض حلق المخالفين، واستقر المذهب بعده في أصحابه، فشاع في تلك الأقطار إلى وقتنا هذا[1].

دخول الأندلس:

انتشر المذهب المالكي في الأندلس، واستقر، بسبب قوة رجالاته، وتأييد الحكام لهم عن اقتناع، فأثبتوه مذهبا رسميا للدولة[2].

واختلف الباحثون في أول من أدخل المذهب المالكي الأندلس، فالمقرى يرى: أن المذهب دخل في عهد

عبد الرحمن الداخل أول أمراء بنى أمية في الأندلس[3]. على يد نخبة من العلماء في مقدمتهم الغازي بن قيس، فهو أول من عرّف الأندلس موطأ الإمام مالك،

(1) المرجع السابق 398.

(2) المدرسة المالكية الأندلسية نشأة وخصائص، مصطفى الهروس، ص412، منشورات وزارة الأوقاف المغربية 1997م.

(3) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلماني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد 1949م ـ 1367هـ مطبعة السعادة.

وزياد بن عبد الرحمن المعروف «بشبطون» الذي يعتبر أول من أدخل موطأ مالك متقنا متفقها بالسماع منه، ثم تلاه يحي بن يحي، الذي يعد أول من أدخله مهذبا مثقفا بالسماع منه[1].

الخلاصة:

ما تقدم يدل على أن مذهب مالك تنقل في بلاد كثيرة، وأصقاع شاسعة، تشمل ثلاث قارات: قارة آسيا، وقارة إفريقيا، وقارة أوربا، وكان أكثر انتشاره في مصر، وتونس، وبلاد المغرب، والأندلس، يقول الشيخ أبوزهرة: وهكذا نرى مذهب مالك قد انتشر في غرب البلاد الاسلامية، ولم ينتشر إلا قليلا في شرقها ببلاد العراق وما وراءها، وذلك لاقامة كثير من تلاميذه بمصر، وتونس، وسرى منهما إلى كل البقاع في غرب البلاد[2].

والمذهب المالكي الآن منتشر في صعيد مصر، والسودان، والكويت، وقطر، والبحرين، وفي الأحساء

---

(1) ترتيب المدارك 3، 347 ـ 349.

(2) تاريخ المذاهب ـ مرجع سابق ـ ص423.

مع المذهب الحنبلي، وفى بلاد المغرب كلها[1]، وفى بلاد إفريقية متعددة، ويزيد أتباعه اليوم عن مائتي مليون[2].

(1) المدخل في التعريف بالفقه الإسلامية، محمد مصطفى شلبى، ص189 دار النهضة العربية بيروت لبنان 1403هـ.

(2) المجاهدون في الحق، صبحي حمصان، ص35 (د ـ ت).

المطلب الثاني

أسباب الانتشار

تعددت الأسباب التي كانت وراء انتشار المذهب المالكي في القارات الثلاث، ويمكن إجمالها في الأسباب الآتية:

السبب الأول: الدافع الديني:

يقصد بالدافع الديني الآثار الواردة في السنة النبوية، التي تشهد للإمام مالك بالسبق في مجال العلم والتفقه، والتي يؤخذ منها الترغيب في اتخاذ الإمام مالك مرجعا وإماما. هذه الآثار التي تعتبر في المنزلة والدلالة كالآثار التي تشهد للصحابي الجليل زيد بن ثابت أرضي الله عنه ـ بالأسبقية في مجال الفرائض، والآثار التي تشهد للصحابي الجليل معاذ بن جبل بالتقدم في علم الحلال والحرام،

والآثار التي تشهد للخليفة الراشد علي بن أبى طالب أكرم الله وجهه ـ بالسبق في القضاء.

والآثار التي تشهد للإمام مالك بالسبق متعددة، منها ما رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، والذهبي وسلم به وزكاه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم، فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة[1].

المقصود بالحديث:

اختلف العلماء في المقصود بالحديث:

فيرى البعض: أنه عبد الله بن عبد العزيز العمري، ويرى آخرون: أن المقصود به عالم المدينة في كل جيل، وجمهور العلماء: أنه الإمام مالك[2].

ورأي الجمهور عند أرجح من رأي غيرهم؛ لـ:

(1) صحيح الترمذي ج10 ص 152 ـ 153، كتاب أبواب العلم، باب ما جاء فى عالم المدينة. المستدرك، ح1 ص 133، كتاب العلم، سير أعلام النبلاء ـ مرجع سابق ـ 7 ص366، فتح المالك بتبويب التمهيد، ابن عبد البر، تحقيق مصطفى حميد 1، 75 دار الكتب العلمية.

(2) السير ـ مرجع سابق ـ ح7 ص327.

1 ـ أن العمري ليس عالم المدينة، قال ابن عبد البر وغيره: ليس العمري ممن يلحق في العلم والفقه بمالك، وإن كان شريفا سيدا[1].

2 ـ أن أكباد الابل لم تضرب من الآفاق لا للعمري ولا لغيره، بل ضربت إلى الإمام مالك، قال أبو عبد الله الحاكم، وذكر سادة من أئمة التابعين بالمدينة، كابن المسيب، ومن بعده ـ قال: فما ضربت أكباد الابل من النواحي إلى أحد منهم دون غيره، حتى انقرضوا، وخلا عصرهم، ثم حدّث مثل ابن شهاب، وربيعة، ويحي بن سعيد، وعبد الله بن زيد بن هرمز، وأبي الزناد، وصفوان بن سليم، وكلهم يفتى بالمدينة، ولم ينفرد واحد منهم بأن ضربت إليه أكباد الابل.

حتى خلا هذا العصر، فلم يقع بهم التأويل في عالم أهل المدينة، ثم حدث بعدهم مالك، فكان مفتيها، فضربت إليه أكباد الابل من الآفاق، واعترفوا له[2].

---

(1) المرجع السابق نفس المكان.

(2) المرجع السابق والجزء ص 329.

فالمقصود بالحديث الإمام مالك، قال سفيان بن عيينة: كنا نسمع أهل المدينة يقولون: إنه مالك بن أنس[1]، وقوله هذا هو الرواية الصحيحة عنه، كما سيقول القاضي عياض قريبا. وعبارته تدل على أن الحديث مشهور بين أهل المدينة رواية ودراية، مباني ومعاني.

قال القاضي عياض: هذا هو الصحيح[2] عن سفيان، رواه عنه ابن مهدى، وابن معين، وذؤيب بن نعامة، وابن المدينى، والزبير بن بكار، وإسحاق بن أبى إسرائيل، كلهم سمع سفيان يفسره بمالك[3].

وقد بين القاضي في كتابه الترتيب: أن الدافع الديني هو أحد الأسباب التي تدفع طالب العلم إلى أن يسلك في التفقه سبيل مالك، يقول في ترتيبه: فحق على طالب العلم، ومريد تعرف الصواب والحق، أن يعرف أولاهم بالتقليد، ليعتمد على مذهبه، ويسلك في التفقه سبيله، وها نحن نبين أن مالكا ـ رحمه الله ـ وهو ذاك... للأثر

---

(1) الارشاد ـ مرجع سابق ـ نقلا عن كتاب محاضرات في تاريخ المذهب المالكي ص23.

(2) هذا اللفظ يدل على أن هناك روايات أخرى عن سفيان غير صحيحة.

(3) السير، ج7 ص367. الديباج 1، 69.

الوارد في عالم المدينة، التي هي داره، وانطلاق هذا الوصف والإضافة على ألسنة الجماهير له، وموافقة أحواله الحال الذي أخبر به في الحديث عنه، وتأويل السلف الصالح أنه المراد[1].

قال ابن تيمية: ما دل عليه الحديث، وأنه مالك، أمر متقرر لمن كان موجودا، وبالتواتر لمن كان غائبا، فإنه لا ريب أنه لم يكن في عصر مالك أحد ضرب إليه الناس أكباد الابل أكثر من مالك، وهذا يقرر بوجهين:

أحدهما: يطلب تقديمه على مثل الثوري، والأوزاعي، والليث، وأبى حنيفة، وهذا فيه نزاع، ولا حاجة إليه في هذا المقام.

والثاني: أن يقال: إن مالكا تأخر موته عن هؤلاء كلهم، فإنه توفى سنة تسع وسبعين ومائة، وهؤلاء كلهم ماتوا قبل ذلك، فمعلوم أنه بعد موت هؤلاء لم يكن في الأمة أعلم من مالك في ذلك العصر، وهذا لا ينازع فيه أحد من المسلمين، ولا رحل إلى أحد من علماء المدينة

---

(1) ترتيب المدارك 1، 84 وما بعدها.

ما رحل إلى مالك لا قبله ولا بعده، رحل إليه من المشرق والمغرب، ورحل إليه الناس على اختلاف طبقاتهم[1].

وقال الذهبي: كان عالم المدينة في زمانه بعد رسول الله ـ ﷺ ـ وصاحبيه زيد بن ثابت، وعائشة، ثم ابن عمر، ثم سعيد بن المسيب، ثم الزهرى، ثم عبد الله بن عمر، ثم مالك، وقال: لم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه، والجلالة، والحفظ[2].

وقال العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عن حديث ضرب أكباد الابل: هذا الحديث رواه الشافعي أيضا في مسنده، والبيهقي في سننه، والحاكم في المستدرك، فألحقه الحاكم بالصحيح، ومما يحقق ذلك أن مالكا قد كان معاصروه بالمدينة، وهم عبد الله العمرى، ومحمد بن أبى ذؤيب، ومحمد بن إسحاق، وعبد العزيز الزهرى، فما شدت الرحال من سائر الأقطار إلا إلى مالك، وقد انقرض عصر مالك، فما خلفه

(1) مجموع الفتاوى، ـ مرجع سابق ـ 20، 323 ـ 324 .

(2) السير ج7 ص367 ـ 368.

بالمدينة إلا عصر أصحابه، ولا يعرف بالمدينة في عصرهم فقهاء غيرهم[1].

ومن الآثار التي دفعت المالكية إلى اعتناق المذهب المالكي، واعتقاد أفضلية المذهب المالكي على غيره ما أورده الإمام القرافي في كتابه الذخيرة، والعلامة ابن جزي في كتابه القوانين، قال الإمام القرافي في مقدمة كتابه الذخيرة: ومنها ما ظهر من مذهبه في أهل المغرب، واختصاصهم به، وتصميمهم عليه، مع شهادته - ﷺ - لهم بأن الحق يكون فيهم، لا يضرهم من خذلهم إلى أن تقوم الساعة، فتكون هذه شهادة للإمام مالك بأن مذهبه حق؛ لأنه شعارهم ودثارهم، ولا طريق لهم سواه، وغيره لم يحصل له هذه الشهادة[2]. وقال ابن جزي في مقدمة كتابه القوانين: أما بعد، فهذا كتاب قوانين الأحكام الشرعية، ومسائل

الفروع الفقهية، على مذهب إمام المدينة أبى عبد الله

---

(1) كشف المغطى من المعانى والألفاظ الواقعة في الموطأ محمد الطاهر بن عاشور، ص9 الشركة التونسية للتوزيع، الشركة الوطنية للتوزيع الجزائر 1976م.

(2) الذخيرة - مرجع سابق - ح1 ص35.

مالك بن أنس الأصبحي؛ إذا هو الذي اختاره أهل بلادنا بالأندلس وسائر المغرب، اقتداء بدار الهجرة، وتوفيقا من الله تعالى، وتصديقا لقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: «**لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق، حتى تقوم الساعة**».

السبب الثاني: شخصية صاحب المذهب:

من الأسباب التي دفعت أهل المغرب وإفريقيا إلى التمذهب بالمذهب المالكي شخصية الإمام مالك، التي عرفت بالتفوق العلمي، والتمسك التام بالسنة، والتشبه التام بآثار الصحابة والتابعين، فمالك كان عند العلماء ربانيا، قدوة، ثبتا، فقيها، حجة، إماما:

- قال عبد الرحمن بن مهدى: الثورى إمام في الحديث، وليس بإمام في السنة، والأوزاعى إمام في السنة، وليس بإمام في الحديث، ومالك إمام فيهما معا[1].
- قال الإمام الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم[2]..

---

(1) ترتيب المدارك ـ مرجع سابق ـ ج1 ص153 .

(2) فتح المالك ـ مرجع سابق ـ 1، 70 .

- ذكر الإمام أحمد بن حنبل مالكا، فقدمه على الأوزاعي، والثوري، والليث، وحماد، والحكم، في العلم، وقال: هو إمام في الحديث وفى الفقه.

- قال ابن معين: مالك من حجج الله على خلقه[1].

- قال الإمام الشافعي: قال لى محمد الشيباني: أيهما أعلم صاحبنا أم صاحبكم؟ - يعنى أبا حنيفة ومالكا - قلت: على الانصاف؟ قال: نعم. قلت: أنشدك بالله من أعلم بالقرآن؟ قال: صاحبكم.

- قلت: من أعلم بالسنة؟ قال: صاحبكم. قلت: فمن أعلم بأقاويل الصحابة والمتقدمين؟ قال: صاحبكم. قلت: فلم يبق إلا القياس، والقياس لا يكون إلا على هذه الأشياء، فمن لم يعرف الأصول على أي شيء يقيس.

- قال ابن سعد: كان مالك ثقة، ثبتا، حجة، عالما، ورعا.

- قال عبد السلام بن عاصم: قلت لأحمد بن حنبل:

---

(1) السير - مرجع سابق - 7، 391.

رجل يحب أن يحفظ حديث رجل بعينه؟ قال: يحفظ حديث مالك: قلت: فرأي؟ قال: رأي مالك.

- قال الإمام البخاري: أصح الأسانيد مالك، عن نافع عن ابن عمر[1] . . .

فمالك كان عند العلماء ربانيا، قدوة، ثبتا، فقيها، حجة، إماما مقدما، وهذا ما دفع الناس إلى:

1 - الرحلة العلمية وضرب أكباد الابل من أجل الأخذ عنه.

2 - أن يقدروا علمه، وينقادوا لفكره.

3 - أن يقتنعوا بأن مذهبه أولى بالاقتداء والاتباع، لأنه الأقرب إلى الشريعة، قال أسد بن الفرات يوم مات مالك، وكان حنفيا بالعراق: لما رأيت شدة وجد أهل العراق على الإمام مالك، ذكرته لمحمد بن الحسن، وهو المنظور فيهم، وقلت له لأختبره: ما كثرة ذكركم لمالك على أنه يخالفكم كثيرا؟ فالتفت إلي، وقال لي: اسكت، كان والله أمير المؤمنين في

(1) المرجع السابق 401.

الآثار، فندم أسد على ما فاته منه، وأجمع أمره على الانتقال إلى مذهبه[1].

4 ـ أن يتخذوه قدوة لهم في كل شيء، حتى في سلوكه الخاص: من لباس، وأكل، وكيفية جلوس للاقراء، وطريقته في الحديث... أي أن يصبح المثل الأعلى، الذي ينبغي أن يحتذى به كل مسلم[2].

مدى تأثير شخصية الإمام:

يمكن إبراز مدى تأثير شخصية الإمام مالك من خلال العناصر الآتية:

العنصر الأول: طول حياته:

من العناصر التي جعلت تأثير الإمام مالك واسعا منتشرا، طول عمره، حيث أتاح له هذا الامتداد في العمر أن يستمر في أداء رسالته العلمية مدة ثلاثين سنة بعد وفاة الإمام أبي حنيفة [توفى سنة 150] وثلاث وعشرين سنة بعد وفاة الإمام الأوزاعي [توفى سنة 157] وبعد حوالي

(1) ترتيب المدارك 2، 468.

(2) تاريخ المذهب المالكي ـ مرجع سابق ـ، ص30.

عشرين سنة من وفاة الإمام سفيان الثوري [توفى سنة 161].

وهذه الميزة أتاحت له مزيدا من الفرص لاشتهار مكانته العلمية، وانتشار أتباع مدرسته، وذيوع خبره في جميع البلاد الاسلامية، فقصده العلماء والطلاب من كل مكان[1]، وشدت إليه أكباد الابل من كل فج عميق، قال الحافظ الذهبي: وقد اتفقت لمالك مناقب، ما علمتها اجتمعت لغيره، أحدهما طول عمره[2].

العنصر الثاني: ابتكاراته وأولياته:

امتاز الإمام مالك بميزات متعددة، لفتت الانتباه إليه، وشدت الأنظار إلى شخصيته الفذة، منها ابتكاراته وأولياته، فهو:

1 ـ أول من ألف للناس كتابا في الحديث الصحيح، قال العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: لم يختلف أهل النظر إلى معاني الأمور وغاياتها في أن الموطأ

(1) المدرسة المالكية الأندلسية ـ مرجع سابق ـ، ص64 ـ 65 .

(2) طبقات الحفاظ 1، 198.

أول كتاب قصد منه إثبات الصحيح من سنة رسول الله ـ ﷺ ـ، فلذلك قال الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك. وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتابه التقصى لأحاديث الموطأ: إن الموطأ لا مثيل له، ولا كتاب فوقه بعد كتاب الله عز وجل. وأطلقوا عليه وصف الصحيح، قال مغلطاي: أول من صنف في الصحيح مالك[1].

2 ـ أول من ألف في تفسير غريب الحديث. وفى شرح الموطأ كثير منه.

3 ـ أول من اشتهر بالجمع بين شرف الفقه وشرف الحديث كتابة، ولولا ما أثبته مالك في الموطأ من ذلك، لضاع علم كثير من علم الصحابة والتابعين، وحرم من جاء بعد مالك من التبصر في مسالك فقه أولئك وتفقههم[2].

---

(1) كشف المغطى ـ مرجع سابق ـ، ص27.

(2) المرجع السابق ص30، الديباج، 1، 87 و125. ندوة الإمام مالك، ص57 المملكة المغربية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، فاس 1980.

4 ـ أعلى الناس سندا، وأثبتهم نظرا، ويشهد لهذا الإمام البخاري، الذي ملأ جامعه بالرواية عن الإمام مالك، مع أنه لم يرو ولا حديثا واحدا عن الإمام أبى حنيفة ولا الإمام الشافعي، وروى حديثين فقط عن الإمام أحمد، لأنه أدرك شيوخه، وأهل الحديث يرغبون في علو السند[1].

العنصر الثالث: طول نفسه، وشدة جلده، في خدمة العلم وبروز ظاهرة التحرى والتأني عنده في التعامل مع القضايا العلمية.

وقد عبر عن طول نفسه، وشدة جلده في نشر العلم، الإمام القرافي في كتابه الذخيرة حيث قال: إن الإمام مالكا أملى في مذهبه نحو من مائة وخمسين مجلدا في الأحكام الشرعية، فلا يكاد فرع فقهى إلا ويوجد له فيه فتيا، بخلاف غيره من الأئمة، ممن لا يجد له أصحابه إلا القليل من المجلدات، كالأم للشافعي، وفتاوى مفرقة في مذهب أبى حنيفة وابن حنبل في كتب أصحابهم، الذين قاموا بالتخريج لبقية مسائل المذهب، ومعلوم أن التخريج

---

(1) الديباج 1، ص78.

قد يوافق إرادة صاحب الأصل، وقد يخالفها، وميل النفس إلى القدوة أكثر من ميلها إلى أتباعه[1].

أما شدة تحريه، وعظم تأثيره، فقد عبر عنه كثير من الأئمة والعلماء:

قال سفيان: رحم الله مالكا، ما كان أشد انتقاءه للرجال. ما نحن عند مالك، إنما كنا نتبع آثار مالك، وننظر الشيخ إن كان كتب عنه مالك، كتبنا عنه.

وقال الإمام الشافعي: كان مالك إذا شك في حديث طرحه كله، وعن معن: كان مالك يتقى في حديث رسول الله ـ ﷺ ـ الباء والتاء ونحوها.

وعن خالد بن خداش قال: قدمت على مالك بأربعين مسألة، فما أجابنى منها إلا في خمس مسائل[2].

وقال النسائي: ما أحد عندى بعد التابعين أنبل من مالك بن أنس، ولا أجل، ولا آمن على الحديث منه[3].

---

(1) الذخيرة ـ مرجع سابق ـ ، ح1 ص 34 ـ 35.

(2) السير، ج7 ص377 ـ 378 و398.

(3) فتح المالك ـ مرجع سابق ـ 1، 65.

وقال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا سئل عن المسألة قال للسائل: انصرف حتى أنظر، فينصرف ويتردد فيها، فقلنا له في ذلك، فبكى، وقال: إني أخاف أن يكون لي في المسائل يوم وأي يوم[1].

العنصر الرابع: كماله الخلقي:

كان طلبة العلم في المشرق والمغرب يقصدون برحلتهم إلى الإمام مالك طلب العلم وسماعه، والإقتداء بهديه والتأثر بسيرته، والتحلى بهيئته وشمائله:

قال القاضي عياض: روي عن يحي بن يحي: أنه كان عند الإمام مالك يوما جالسا في جملة أصحابه، إذ قال قائل: قد حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه، فقال له مالك: مالك لم تخرج فتراه؛ إذ ليس بأرض الأندلس؟ فقال له يحي: إنما جئت من بلدى لأنظر إليك، وأتعلم من هديك، وعلمك، لا إلى النظر إلى الفيل. فأعجب به مالك، وسماه العاقل.

قال إبراهيم بن باز: والله الذي لا إله إلا هو، ما

(1) الديباج 1، 111.

رأيت أوقر من يحي بن يحي قط، ما رأيته يبصق، ولا يسعل في مجلسه، ولا يتحرك عن حاله، وكان أخذ بزي مالك وسمته[1].

وقال يحي بن يحي التميمى: أقمت عند مالك بن أنس بعد كمال سماع منه سنة أتعلم هيئته، وشمائله، فإنها شمائل الصحابة والتابعين[2].

وقد ورث العلماء هذه الشمائل عنه، ونقلوها إلى تلامذتهم من بعدهم، فكانت أخلاقهم ومجالسهم تشبه من حيث الالتزام، والأخلاق، والهيبة والوقار، وعدم اللغط مجالس الإمام مالك رحمه الله تعالى[3].

العنصر الخامس: تعظيمه للشريعة وصاحبها، وقد بلغ هذا التعظيم حدا صار به سلوك الإمام مضرب الأمثال، ومحط الإعجاب، روى القاضي عياض بسنده قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال له: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك

---

(1) ترتيب المدارك 2، 536 ـ 537.

(2) المرجع السابق 1، 408.

(3) المدرسة المالكية الأندلسية ـ مرجع سابق ـ ، ص68.

في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قوما، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[1]. وذم قوما، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2]. وإن حرمته ميتا كحرمته حيا، فاستكان لها أبو جعفر.

وكان الإمام مالك من أشد السلف تعظيما لحرمة رسول الله ـ ﷺ ـ، فكان لا يركب بالمدينة دابة، وكان يقول: استحى من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله ـ ﷺ ـ بحافر دابة.

وكان يفتى فيمن قال تربة المدينة رديئة: يضرب ثلاثين درة ـ آلة تعزير ـ، وأمر بحبسه، وقال: ما أحوجه إلى ضرب عنقه، تربة دفن فيها رسول الله ـ ﷺ ـ يزعم أنها غير طيبة.

وكان إذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية، فتقول لهم: يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل، فإن قالوا: المسائل، خرج إليهم، وإن قالوا: الحديث،

---

(1) سورة الحجرات آية 2.
(2) سورة الحجرات آية 4.

دخل مغتسله، فاغتسل، وتطيب، ولبس ثيابا جديدة، ولبس ساجه ـ الطيلسان ـ وتعمم، ووضع على رأسه رداءه، وتلقى له منصة، فيخرج، فيجلس عليها، وعليه الخشوع، ولا يزال يبخر بالعود، حتى يفرغ من حديث رسول الله ـ ﷺ ـ قال ابن أبى أويس: فقيل لمالك في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ـ ﷺ ـ.

قال عبد الله بن المبارك: كنت عند مالك مرة، وهو يحدثنا، فلدغته عقرب ست عشر مرة، وهو يتغير لونه ويصفر، ولا يقطع حديث رسول الله ـ ﷺ ـ فلما فرغ من المجلس، وتفرق عنه الناس، قلت: يا أبا عبد الله، لقد رأيت منك اليوم عجبا، قال: نعم، لدغتنى عقرب ست عشر مرة، وأنا صابر في جميع ذلك، وإنما صبرت إجلالا لحديث رسول الله ـ ﷺ ـ [1]..

وقد اعتنى العلماء ببيان هذا العنصر في ترجيح المذهب المالكي، وقد عقد ابن فرحون في مقدمة

---

(1) انظر فى هذا كتاب الشفا للحافظ عياض، وكتاب الجامع للحافظ البغدادي، والديباج، مفاهيم يجب أن تصحح للمحدث محمد بن علوي المالكي، 276 (د ـ ت).

ديباجه، حين تعرض لترجيح مذهب مالك على المذاهب الأخرى، فصلا في توقير الإمام مالك، وتعظيمه لحديث رسول الله ـ ﷺ ـ.

والعناية بهذا العنصر اقتبسها علماء المالكية من إمامهم، الذي كان يضع تعظيم رسول الله ـ ﷺ ـ معيارا للأخذ عن العلماء:

قال الإمام مالك: رأيت أيوب السختياني بمكة حجتين، فما كتبت عنه، ورأيته في الثالثة قاعدا في فناء زمزم، فكان إذا ذكر النبي ـ ﷺ ـ عنده يبكى، حتى أرحمه، فلما رأيت ذلك كتبت عنه[1].

السبب الثالث في انتشار المذهب الموطأ:

يعتبر الموطأ للإمام مالك من أهم العوامل في انتشار المذهب المالكي في مشارق الأرض ومغاربها، فلقد أحدث تأليفه شهرة كبيرة لمذهب الإمام مالك في عرض البلاد، حيث ألف في وقت لم يتيسر فيه لكثير من العلماء أن يكتبوا مثل[2].

---

(1) الديباج 1، 101.

(2) تاريخ الفقه الاسلامي ـ محمد أنيس، ص96 (د ـ ت).

دفعت هذه الشهرة العلماء وطلبة العلم إلى الرحلة إلى الإمام مالك، لأخذه عنه، فرحل إليه جلة فقهاء العراق كأبى يوسف والشيباني، وأكابر علماء المغرب وإفريقيا والأندلس، كابن زياد، ويحي بن يحي الليثى...

منزلة الموطأ:

يعتبر الموطأ أول كتاب قصد به إثبات الحديث الصحيح، قال ابن العربى في مقدمة كتابه العارضة شرح الترمذي: الموطأ هو الأصل واللباب، وكتاب الجعفى - البخاري - هو الثاني في هذا الباب، وعليهما بنى الجميع كالقشيرى والترمذي وقال ابن عبد البر في التمهيد: كتاب الموطأ لا مثيل له، ولا كتاب فوقه بعد كتاب الله عز وجل، وقال قبلهما الإمام الشافعي: ما كتاب بعد كتاب الله عز وجل أنفع من موطأ مالك بن أنس.

أشهر الروايات له:

روى الموطأ عن الإمام مالك خلائق لا تحصى، لكن أشهر روايات الموطأ المتداولة الآن روايتان:

الرواية الأولى: رواية يحي بن يحي الليثى، وهي المطبوعة بمصر.

الرواية الثانية: رواية محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة طبعت في الهند، ووضع عليها العلامة شاه ولي الله الدهلوى شرحه.

مظاهر آثار الموطأ:

كان لكتاب الموطأ أثر هائل في مجال العلوم الشرعية وعند العلماء وطلبة العلم، ويمكن تلمس هذا الأثر في:

1 ـ اعتماد جميع المذاهب الاسلامية عليه، قال العلامة ولي الله الدهلوى في شرحه على الموطأ: من تتبع المذاهب، ورزق الانصاف علم لا محالة أن الموطأ عدة مذهب مالك وأساسه، وعمدة مذهب الشافعي وأحمد ورأسه، ومصباح مذهب أبى حنيفة وصاحبيه ونبراسه.

وهذه المذاهب بالنسبة إلى الموطأ كالشروح للمتن، وعلم أيضا أن الكتب في السنن: كصحيح مسلم، وسنن أبى داود، والنسائى، وما يتعلق بالفقه من صحيح البخاري، وجامع الترمذي مستخرجات على الموطأ، تحوم حومه، وتروم رومه، مطمح نظرهم

فيها وصل ما أرسله، ورفع ما أوقفه، واستدراك ما فاته، وذكر المتابعات والشواهد لما أسنده[1].

2 ـ عناية العلماء والأئمة بحفظه واتقانه وروايته، قال الحافظ الذهبي: ما زال العلماء قديما وحديثا، لهم اعتناء برواية الموطأ ومعرفته وتحصيله[2].

3 ـ تزاحم العلماء على المجالس التي يدرس فيها الموطأ، قال الإمام الشافعي أرحمه الله تعالى ـ: قال محمد بن الحسن: أقمت عند مالك ثلاث سنين وكسرا، وسمعت من لفظه أكثر من سبعمائة حديث، فكان محمد إذا حدث عن مالك امتلأ منزله، وإذا حدث عن غيره من الكوفيين لم يجئه إلا اليسير[3].

4 ـ عناية الأئمة والعلماء بالكتابة عليه في أغراض مختلفة، قال القاضي عياض: لم يعتن بكتاب في كتب الفقه والحديث اعتناء الناس بالموطأ، فإن الموافق والمخالف أجمع على تقديمه، وتفضيله، وروايته، وتقديم حديثه، وتصحيحه.

---

(1) نقلا عن كتاب ندوة مالك ـ المغرب ـ مرجع سابق ـ ص76.

(2) السير 7، 384.

(3) المرجع السابق ص378.

وقد اعتنى العلماء ببيان من اعتنى بالموطأ من العلماء والأئمة، ومن هؤلاء العلماء القاضي عياض في مداركه، وابن فرحون في ديباجه، والحافظ الذهبي في سيره...

وقد عد الدكتور عمر الجيدى في كتابه محاضرات في تاريخ المذهب المالكي[1] بعض الذين اعتنوا بالموطأ، وشرحوه، أو تكلموا فيه عن رجاله، أو شرحوا غريبه، أو تحدثوا عنه في أغراض مختلفة، فعد منهم مائة وسبعة وثلاثين، وممن عدهم:

- أحمد بن نصر الداودى (402هـ) له كتاب النامى في شرح الموطأ.
- أحمد بن الحاج المكي السدراتى (1253هـ) له شرح على الموطأ مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط.
- أحمد بن علي بن الخطيب البغدادي (463) له كتاب في أسماء الرواة للإمام مالك بن أنس.
- أحمد بن طاهر بن علي بن عيسى بن عبادة (532) له كتاب الايماء إلى أطراف أحاديث مالك.
- أحمد بن سعيد بن فوضخ له كتاب مسند الموطأ.

---

(1) ص161 وما بعدها.

- أبو عمر الطلمنكى.

- إسماعيل القاضي، له شواهد الموطأ.

- إدريس القابسى، له المسالك على موطأ مالك.

- أبوذر الهروى، له شواهد الموطأ.

- أبو عبد الرحمن النسائى، له مسند حديث مالك.

- أبوحفص بن شاهين.

- أبو الحسن الدارقطنى، له كتاب في اختلاف الموطآت.

- أبو محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن وهب، له شرح الموطأ.

- ابن حزم الظاهرى، له شرح الموطأ.

- بدر الدين القرافى له شرح الموطأ.

- محمد بن العربي، له كتاب القبس.

- محمد بن سحنون.

- محمد الطاهر بن عاشور، له كشف المغطى.

- يوسف بن عبد البر، له التمهيد، وله الاستذكار.

السبب الرابع : المدينة المنورة:

تعتبر المدينة المنورة أحد الأسباب المهمة في انتشار المذهب المالكي.

ويمكن معرفة أثر هذا السبب من خلال ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: الموقع الجغرافى، حيث كانت بلاد الحجاز قبلة المسلمين، يفدون إلى البيت الحرام في مكة للحج، وإلى المدينة المنورة للزيارة، وقد أشار العلامة ابن خلدون في مقدمته إلى أهمية الموقع الجغرافى في نشر المذهب المالكي، حيث قال: إن رحلة هؤلاء كانت غالبا إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم . . . ولم يكن العراق في طريقهم، فاقتصروا على الأخذ من علماء المدينة.

النقطة الثانية: طبيعة الحياة والمعيشة، حيث يوجد أوجه شبه بين حياة أهل الحجاز وحياة أهل إفريقيا من حيث: البساطة، والوضوح، والبعد عن التكلف والتعقيد. يقول ابن خلدون في مقدمته: وأيضا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا

يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكان إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة[1].

النقطة الثالثة: مكانه المدينة العلمي، حيث كانت دار علم الإسلام في القرنين الأول والثاني، وعلماؤها هم قدوة أهل الدين والأثر واتباع السنة:

فأما انها دار العلم والأثر الصحيح فظاهر معلوم؛ لأنها مأوى أعلم الصحابة وأشدهم ملازمة لرسول الله ـ ﷺ ـ، يقول ابن تيمية: ومعلوم أن من كان بالمدينة من الصحابة هم خيار الصحابة؛ إذ لم يخرج منها أحد قبل الفتنة، إلا وأقام بها من هو أفضل منه، فإنه لما فتح الشام والعراق وغيرهما أرسل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى الأمصار من يعلمهم الكتاب والسنة، فذهب إلى العراق عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر، وعمران بن حصين، وسلمان الفارسي، وغيرهم، وذهب إلى الشام معاذ بن جبل، وعبادة ابن الصامت، وأبو الدرداء، وبلال بن رباح، وأمثالهم، وبقي عنده مثل عثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، ومثل أبي بن

(1) المقدمة، ابن خلدون، ص392، المطبعة البهية مصر.

كعب، ومحمد بن مسلمة، وزيد بن ثابت، وغيرهم.

وكان ابن مسعود ـ وهو أعلم من كان بالعراق من الصحابة إذ ذاك ـ يفتى بالفتيا، ثم يأتى المدينة، فيسأل علماء أهل المدينة، فيردونه عن قوله، فيرجع إليهم[1].

ومما يوضح الأمر في ذلك: أن سائر أمصار المسلمين غير الكوفة كانوا منقادين لعلم أهل المدينة، لا يعدون أنفسهم أكفاءهم في العلم كأهل الشام ومصر، مثل الأوزاعى ومن قبله وبعده من الشاميين، ومثل الليث بن سعد، ومن قبل ومن بعد من المصريين، وإن تعظيمهم لعمل أهل المدينة وإتباعهم لمذاهبهم القديمة ظاهر بين، وكذلك علماء البصرة: كأيوب، وحماد بن زيد، وعبد الرحمن بن مهدى، وأمثالهم، ولهذا ظهر مذهب أهل المدينة في هذه الأمصار[2].

وأما أن علماءها هم أتباع السنة، فلأن البدع والضلالات ظهرت في وسط وآخر عصر الصحابة، فكان ظهورها في غير المدينة؛ إذ لم يكن في المدينة نحله من

(1) مجموع الفتاوى 20 ص311 ـ 312.
(2) المرجع السابق، ص314.

العقائد الزائغة والضلالات؛ لأن علماءها كانوا ينفون عنهم أصحاب البدع، فلا يجدون فيها رواجاً. . . وأن أهل القرون الثلاثة المشهود لها بالفضل في الحديث كان وجوههم وأئمتهم، وخيرتهم في المدينة، قال الإمام مالك: لولا أن عمر بن عبد العزيز أخذ هذا العلم بالمدينة، لشككه كثير من الناس[1].

يقول ابن تيمية: الأعصار الثلاثة المفضلة لم يكن فيها بالمدينة بدعة ظاهرة ألبته، ولا خرج منها بدعة في أصول الدين ألبته، كما خرج من سائر الأمصار؛ فالكوفه خرج منها التشيع والارجاء، والبصرة خرج منها القدر والاعتزال والنسك الفاسد، والشام كان بها النصب والقدر، وأما التجهم فإنما ظهر من ناحية خراسان، وهو شر البدع[2].

وهناك عدد من الأحاديث التي تبين قدر المدينة وعافيتها وسلامتها من الفتن، منها

1 ـ ما أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل

---

(1) كشف المغطى ـ مرجع سابق ـ ص29.

(2) انظر مجموع الفتاوى ـ مرجع سابق ـ ص301.

المدينة عن أبى هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «**ان الايمان ليأرز ـ ينضم ويجتمع ـ إلى المدينة، كما تأرز الحية إلى جحرها**»(1)

قال القاضي عياض: وما ذلك من رسول الله ـ ﷺ ـ مدحا للأرض والدور، وما ذلك إلا مدحا لأهلها، وتنبيها على أن ذلك باق فيهم زائد عن غيرهم حين يرفع العلم(2).

وقال الحافظ ابن حجر: قوله «كما تأزر الحية إلى جحرها»: أي أنها كانت كما تنتشر من جحرها في طلب ما تعيش به، فإذا راعها شيء رجعت إلى جحرها، كذلك الايمان، انتشر في المدينة، وكل مؤمن له في نفسه سائق إلى المدينة لمحبته في النبي ـ ﷺ ـ، فيشمل ذلك جميع الأزمنة؛ لأنه في زمن النبي ـ ﷺ ـ للتعلم منه، وفى زمن الصحابة، والتابعين، وتابعيهم للاقتداء بهديهم، ومن بعد

---

(1) صحيح البخاري ـ الفتح ـ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ح4 ص111، كتاب فضائل المدينة، باب الايمان يأرز إلى المدينة الطبعة الأولى 1424 ـ 2002 مكتبة الصفاء.

(2) ترتيب المدارك 1، 61.

ذلك لزيارة قبره والصلاة في مسجده، والتبرك بمشاهدة آثاره وآثار أصحابه[1].

2 _ ما أخرجه البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت _ ﷺ _ قال: لما خرج النبي _ ﷺ _ إلى أحد، رجع ناس من أصحابه، فقالت فرقة: نقتلهم، وقالت فرقة: لا نقتلهم، فنزلت ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾[2] وقال النبي _ ﷺ _: **«إنها تنفى الرجال، كما تنفى النار خبث الحديد»**[3].

قال الحافظ ابن حجر في شرحه: المراد أنها لا تترك فيها من في قلبه دغل، بل تميزه عن القلوب الصادقة، وتخرجه كما يميز الحداد رديء الحديد من جيده.

أحاديث أهل المدينة:

تعتبر أحاديث أهل المدينة أعلى أحاديث الأمصار وأوضحها باتفاق أهل الحديث، ولهذا كان البخاري -

(1) فتح الباري ـ مرجع سابق ـ ح4 ص 112.
(2) سورة النساء آية 88.
(3) صحيح البخاري فتح الباري ـ مرجع سابق ـ ح4 ص 115 ـ 116 كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخبث.

رحمه الله تعالى - أول ما يبدأ في الباب بحديث أهل المدينة ما وجدها، ثم يتبعها بأحاديث أهل الأمصار، وهذه ك:

- مالك عن نافع عن ابن عمر.
- ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة.
- مالك عن هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة.
- أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة.
- ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة.
- يحي بن سعيد عن أبى سلمة عن أبى هريرة.
- ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس.
- مالك عن موسى عن عقبة عن كريب عن أسامة بن زيد.
- الزهرى عن عطاء بن يزيد الليثى عن أبى أيوب، وأمثال ذلك[1].

---

(1) أعلام الموقعين ابن قيم الجوزية، تحقيق بشير محمد، مكتبة دار لبنان، ط أولى 1421 هـ.

أسباب أخرى للانتشار:

هناك أسباب أخرى أدت إلى انتشار المذهب المالكي، منها:

- نشاط تلاميذ الإمام مالك في التأليف وفى الدعوة للمذهب.

- موقف الإمام مالك من آل البيت، الذي دفع الأدارسة في المغرب إلى اعتناق مذهبه، حيث وقف الإمام موقفا مشرفا مع أخ إدريس المعروف بمحمد النفس الزكية، حيث أفتى عند قيام هذا الأخير بأن بيعة أبى جعفر لا تلزم، لأنها كانت على الاكراه، وكان قد أفتى ببطلان طلاق المكره، وسقوط يمين الاكراه.

- وهناك سبب آخر دفع الأدارسة إلى اعتناق مذهب الإمام مالك رواية الإمام مالك في موطئه عن عبد الله الكامل والد إدريس[1].

ومن الأسباب التي أدت إلى انتشار مذهب الإمام مالك الموقف السياسى، إذ جاء في بعض الروايات: أن

---

(1) مقال عباس الجرارى في ندوة الإمام مالك ـ المغرب ـ مرجع سابق ـ ص180.

الامام مالكا سأل بعض الأندلسيين عن سيرة ملك الأندلس، فوصف له سيرته، وقال: إنه يأكل الشعير، ويلبس الصوف، ويجاهد في سبيل الله، فقال مالك: ليت الله زين حرمنا بمثله، فوصل الخبر إلى ملك الأندلس، فحمل الناس على مذهبه، وترك مذهب الأوزاعى. ويرى المقرى: أن هذا السبب ضعيف، وأن الصحيح أن سبب الإنتشار هو رحلة علماء الأندلس إلى المدينة، ونشرهم لعلم مالك وفضله[1].

(1) نفح الطيب ـ مرجع سابق ـ، 4، 214 ـ 215.

المطلب الثالث

أسباب استقرار المذهب

استقر المذهب المالكي في إفريقيا والأندلس وفى المغرب العربى، وكان وراء هذا الاستقرار أسباب متعددة، يمكن إجمالها في الآتي:

السبب الأول: مقومات المذهب المالكي التي ساعدت على استقراره وثباته، ومن هذه المقومات:

1 ـ تجدد المذهب باستمرار، انطلاقا من مبدأي المصالح المرسلة، والذرائع، وما تعطيانه من مرونة وقابلية للتكيف مع أي بيئة وفى أي عصر، وحل مختلف القضايا والنوازل الطارئة.

2 ـ طبيعة المذهب نفسه التي تعتمد على النص والنقل

والأثر والرواية، فضلا عن الواقعية[1]. وهو في هذا يوافق مزاج المغاربة والأفارقة الذين ينفرون من الغموض والابهام، ويميلون إلى البساطة واليسر، وإلى الواقعية والعمل الملموس.

3 ـ نضالية المذهب وجماهيريته، والتحام فقهائه بالقضايا الوطنية، وتقدمهم في ميدان الجهاد.

ولا أدل على ذلك من قيام دولة المرابطين القوية على أكتاف فقهاء المذهب، كما لا أدل على ذلك من الدور الذي نهض به أهل المغرب في أعماق القارة الافريقية على نشر الاسلام من خلال المذهب المالكي، وما يؤكده من تصوف مستند إلى الكتاب والسنة[2].

4 ـ تأييد الدولة للمذهب، وعملها على إستقراره من حيث تبنيه في مؤسسات الحكم والقضاء، وفى مؤسسات التعليم والتربية.

5 ـ قوة علماء المالكية من حيث التكوين العلمي

---

(1) مراعاة البيئة والعرف

(2) مقال عباس الجرارى السابق ص194 ـ 196.

والثقافي، ومن حيث التكوين التربوي والسلوكي، وقراءة كتب التراجم والسير لعلماء المالكية في الأندلس والمغرب وإفريقيا خير شاهد على هذا.

وأحسن مثل يبين أثر هؤلاء العلماء في المشرق والمغرب قراءة فتح البارى شرح صحيح البخاري، ومعرفة الأئمة والعلماء الذين اعتمد عليهم ابن حجر في شرحه، فستجده نقل عن شخصيات كثيرة من علماء المالكية، ك: الأصيلي، وابن الحذاء، وابن بطال، وابن عتاب، والمهلب بن أبي صفرة، وابن عبد البر، وأبى الوليد الباجي، والقاضي ابن علي الجياني، والفاسي، والداودي، والمازري، وابن العربي، وابن رشد، والقاضي عياض، وابن شكوال، والسهيلي، والقرطبي، وابن التين، وابن أبى جمرة الفاسي، وابن المنير.

كل هؤلاء من المغاربة، اعتمد عليهم الحافظ ابن حجر في شرحه على البخاري سوى ابن المنير فهو اسكندري[1].

---

(1) مقال صالح الحسيني، ندوة الامام مالك - مرجع سابق - ص 145.

المبحث الثاني

أثر المذهب المالكي في الاستقرار الاجتماعي والاستقلال الوطني

المطلب الأول: **أثر المذهب في الاستقرار الاجتماعي**

المطلب الثاني: **دوره في مقاومة الاستعمار**

المطلب الأول

أثر المذهب في الاستقرار الاجتماعي

لعب المذهب المالكي دورا مهما في الاستقرار الاجتماعي، في كل بلد حل فيه، ومدينة استقر فيها، ويمكن تقويم هذا الدور في:

1 ـ براءة المذهب المالكي من البدع المنحرفة:

التي تشم منها رائحة الخلافات الاعتقادية المدمرة، ومقاومته لها، ونفرته منها، ونفرة أتباعه منها، اقتداء بإمامهم، الذي كان يكره المراء ويبغض الجدال، ويبعد أهله عنه والمتصفين به.

عن ابن وهب قال: كنا عند مالك، فقال رجل: يا أبا عبد الله (الرحمن على العرش استوى) كيف استواؤه؟ فأطرق مالك، وأخذته الرحضاء، ثم رفع رأسه، فقال:

الرحمن على العرش استوى، كما وصف نفسه، ولا يقال له كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء، صاحب بدعة. أخرجوه[1].

وعن معن قال: قال مالك: لا يؤخذ العلم عن أربعة: سفيه يعلن السفه، وإن كان أروى الناس، وصاحب بدعة يدعو إلى هواه، ومن يكذب في حديث الناس وإن كنت لا أتهمه في الحديث، وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ ما يحدث به[2].

وقد وقف فقهاء المالكية بالمرصاد للدعوات الهدامة ولأصحابها الذين يحاولون نشرها، ومن الكلمات الخالدة التي سجلها التاريخ لأسد بن الفرات في حق المعتزلي بشر المريسى، الذي ألف كتاب التوحيد: أو جهل الناس التوحيد حتى يضع لهم بشر فيه كتابا، هذه نبوة ادعاها[3]، وممن اشتهر بالوقوف منهم موقف الصرامة سحنون بن سعيد منذ ولي القضاء، حيث فرق حلق أهل البدع.

(1) السير 7، 394.

(2) المرجع السابق 373.

(3) رياض النفوس أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي، تحقيق بشير البكوش ومحمد العروسي 264،1 دار الغرب الإسلامي.

وهذا على خلاف كثير من حملة المذاهب الأخرى، الذين جمعوا بين الانتماء لمذهبهم الفقهى، والانتماء لإحدى الفرق الخارجة عن السنة.

أي أن المذهب المالكي حمى أتباعه من كل ما تشم منه رائحة الخلافات الاعتقادية، وقوّى تماسك أفراد المجتمع، وتلاحمه، على خلاف ما وقع بالمشرق من هزات وفتن نتيجة الخلافات الاعتقادية، التي أدت إلى تكفير الناس بعضهم البعض، ومقاتلة بعضهم بعضا، وتشردم المجتمع إلى فرق وجماعات وأحزاب.

جاء في كتاب المعيار للونشريسى: أن الحكم المستنصر بالله كتب إلى الفقيه أبى إبراهيم إسحاق بن إبراهيم التجيبى كتابا جاء فيه: نظرنا طويلا في أخبار الفقهاء، وقرأنا ما صنف في أخبارهم إلى يومنا هذا، فلم نر مذهبا من المذاهب غيره أسلم منه، فإن فيهم الجهمية، والرافضة، والخوارج، والمرجئة، والشيعة، إلا مذهب مالك، فإنا ما سمعنا أن أحدا ممن تقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع، فالاستمساك به نجاة إن شاء الله تعالى.

2 ـ مسالمة أهل المذهب للحكام والدولة.

يدعو المذهب إلى معاملة الساسة بالاحترام والتقدير، وإلى وجوب تقديم ولاء الطاعة فيما لا معصية فيه، ويصرح بتحريم الخروج عليهم، رغبة في المحافظة على مصالح الأمة، بإبعادها عما يضرها ويؤذيها، وحرصا على تقوية جبهتها وسدتها الداخلية، والشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وترجيح خير الخبرين، ودفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما[1].

3 ـ عدل قضاة المالكية في المناطق التي تولوا القضاء فيها، هؤلاء القضاة الذين سلكوا في ولايتهم منهجا مطابقا للسياسة الشرعية، يؤدى إلى القضاء على الظلم، والامتيازات، والاستغلال، وتوفير العدل للجميع، يقول ابن تيمية: الأمصار التي ظهر فيها مذهب أهل المدينة، يكون فيها من الحكم بالعدل ما ليس في غيرها[2].

---

(1) مجموع الفتاوى 20، 48.

(2) المرجع السابق، ج 20 ص393.

المطلب الثاني

دوره في مقاومة الاستعمار

كان للمذهب المالكي دور عظيم في مقاومة الاستعمار، ويتجلى هذا الدور في:

1 ـ تعاليم المذهب وأحكامه التي تدعو إلى الجهاد في سبيل الله والتصدي للغزاة، ووجوب هذا التصدي بالنفس والمال على كل مستطيع، سواء كان هذا المستطيع رجلا أم امرأة، لأن الجهاد يصير فرض عين بغزو محلة قوم.

2 ـ الدور الوقائى حين وحد المذهب أبناء مجتمعه، وحماهم من التشردم والتفرق، وجعلهم في اتجاهاتهم وأفكارهم متحدين متراصين ليس فيهم من يتبط أو يفشل أو يخذل، وحين وحدت الدولة التي

تدين بالمذهب المالكي نظام القضاء، وأعلنت وحدة المذهب على أراضيها، الذي يقع التقاضي بموجبه، مع التزام القول المشهور والراجح، وما به العمل، وحققت بذلك مبدأ مساواة المواطنين جميعا أمام القانون، على خلاف ما كان العمل به جاريا في بعض أقطار المشرق، من تعدد محاكم القضاء، تبعا لتعدد المذاهب، وتفاوت الرعية في الأحكام الصادرة عليها من محمكة إلى أخرى ومذهب إلى آخر.

قال الإمام الشاطبي: ترك الانضباط إلى أمر معروف يؤدى إلى انخرام قانون السياسة الشرعية.

3 ـ تصدر أئمته وتقدمهم للجهاد في سبيل الله، وتاريخ مقاومة الاستعمار مليء بشخصيات الأئمة والفقهاء، الذين أبلوا بلاء عظيما في الحروب، بدءا بأسد بن الفرات ومرورا بابن جزي، وختاما بعمر المختار، وغيره من المجاهدين والأبطال.

خاتمة

يمكن من خلال ما تقدم أن أوجز البحث في عناصر:

1 ـ أن المذهب المالكي موجود في بلاد كثيرة، وأصقاع متعددة، تشمل قارات ثلاثة: آسيا، وأوربا، وأفريقيا.

2 ـ أن هناك وراء الإنتشار للمذهب أسبابا ودوافع متعددة، من أهمها الدافع الديني.

3 ـ أن المذهب المالكي تمتع بالإستقرار في بلاد أفريقيا، والأندلس، وفي بلاد المغرب العربي، وبعض الدول في الخليج العربي.

4 ـ أن المذهب المالكي لعب دورا مهما في الاستقرار

الاجتماعي في كل بلد حل فيه، ومدينة استقر فيها.

5 ـ كان للمذهب المالكي دور عظيم في مقاومة الاستعمار، وأثر كبير في مقاومة الإحتلال

أهم المراجع والمصادر

من أهم المراجع والمصادر الواردة في البحث:

1 ـ أعلام الموقعين، شمس الدين أبى عبد الله محمد بن قيم الجوزية، تحقيق بشير محمد عبون، مكتبة دار لبنان ط أولى 1421 هـ ـ 2000.

2 ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض، تحقيق أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة بيروت، دار مكتبة الفكر طرابلس ليبيا.

3 ـ الذخيرة، للقرافي، تحقيق محمد بوخبزة، دار الغرب الإسلامي ط أولى 1994.

4 ـ رياض النفوس، لأبى بكر عبد الله بن محمد المالكي، تحقيق بشير البكوش ومحمد العروسي، دار الغرب الإسلامي ط ثانية 1414 هـ ـ 1994م.

5 ـ سير أعلام النبلاء مع أحكام الرجال من ميزان الاعتدال، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة 748 هـ، تحقيق خيري سعيد، المكتبة التوفيقية.

6 ـ كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، الشركة الوطنية للتوزيع الجزائر 1976.

7 ـ المدخل في التعريف بالفقه الاسلامي وقواعد الملكية والعقودية، محمد مصطفى شلبي، دار النهضة العربية بيروت لبنان 1403 هـ ـ 1983 م.

8 ـ المدرسة المالكية الأندلسية، مصطفى هروس، منشورات وزارة الأوقاف المغربية 1997م.

9 ـ المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق حمدى الدمرداش محمد، الناشر مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة الرياض، الطبعة الثانية 1427 هـ ـ 2006م.

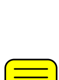
10 ـ مالك، أبو زهرة، دار الفكر العربي القاهرة.

11 ـ مجموع فتاوي أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمى النجدى، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع طبعة 1412 هـ ـ 1991 م.

12 ـ محاضرات في تاريخ المذهب المالكي، د عمر الجيدى، منشورات عكاظ المملكة المغربية (د ـ ت).

13 ـ ندوة الإمام مالك إمام دار الهجرة، المملكة المغربية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية فاس 1980.

14 ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقرى التلمسانى، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد 1949م ـ 1367 هـ مطبعة السعادة بمصر.



المحتويات